

رضا □ تعالى



يقول تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا حَسَنًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) (العنكبوت/ 7)، أيها الناس آمنوا بأ□، فالإيمان بأ□ هو حقيقة الحقائق، واعملوا صالحاً، فإن العمل الصالح هو معنى الحياة ومعنى المسؤولية فيها، فإذا آمنتم بأ□ كما يجب الإيمان، وعلمتم الصالحات كما يحب□، أتعرفون ما الجائزة (لنكفّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) ويغفرها لكم باعتبار أن العمل الصالح يطرد السيئ، وزيادة على ذلك (ولنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا حَسَنًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) ليضاعف لهم أجرهم وثوابهم (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) (الأنعام/ 160). وعلى هذا، فلماذا يزهد الإنسان في ثواب□، ويرغب في ثواب عباد□؟ وما قيمة ثواب العباد؟ إن ثواب□ هو الذي يخلد، فلماذا يرغب الإنسان في الفاني ويترك الخالد الباقي؟

ويوجّه القرآن الكريم الإنسان لرعاية والديه (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (العنكبوت/ 8)، فأحسن لوالديك كما أحسننا لك وبرّهما كما برّا بك، وأعطهما الحنان والعاطفة والرعاية، كما أعطياك ذلك كله.. ولكن هناك مسألة، وهي أن هناك فرقا بين الإحسان وبين الطاعة، فالطاعة هي□، فإذا أمرك والداك بطاعة□ فأطعهما بطاعة□، أو أمراك بما لا معصية□ فيه، فلك أن تُحسن إليهما، وتقدّم لهما ما لا يجب عليك شخصياً وليس محرّماً. ولكن إذا أمراك بأن تعصي□ لتفعل محرّماً هنا ومحرّماً هناك، أو أن تعين ظالماً وتؤيّدده وتخذل مؤمناً وتحاربه، أو (وإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) لتنتقل للإشراك بأ□، بحيث تطيع ظالماً أو كافراً بمعصية□، أو تطيع طاعة في الإضرار بعباد□ (فلا تُطِعْهُمَا) لأنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وإنك عندما تقول: يا رضا □ ورضا الوالدين، فيشترط أن يكون رضا الوالدين في رضا□، أمّا إذا كان رضا الوالدين في معصية□، فإن عليك أن تُغضب والديك، خصوصاً إذا كانا يتأذيان من صلاتك وصومك وحجّتك وبذلِكَ ما عليك من حق□، لأنّ القضية هي أن يرضى□، والأمر عندما يدور بين الوالدين وبين□، فالأولى أن يرضى، لأنّه ربنا وربّ والدينا.

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ° وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ° بِمَا كُنْتُمْ ° تَعْمَلُونَ) ستقف أيها الإنسان أمام □، وكذلك سيفقد والداك وستُجزى بعملك، ولن يدافع عنك أبواك ولن تدافع عنهما (لا يجزي والدي □، فَإِنَّهُ سَبَّحَهُ يَقْدَمُ لِلنَّاسِ كُلِّ مَا فَعَلُوهُ مِنْ سِرٍِّ أَوْ جَهْرٍ، لِأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى كُلِّ مَا يَعْمَلُونَ) (وَإِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ ° فِي الصَّالِحِينَ) (العنكبوت/9)، إذا أطعتم □ وعلمتم صالحاً فسيدخلكم □ في مجتمع الصالحين، ونحن نعرف أن مجتمع الصالحين هو مجتمع أهل الجنة، فأية جائزة تنالها في نهاية المطاف على كلِّ أتعابك وصبرك وإيمانك، أعظم من جائزة الدخول إلى الجنة، التي عرضها عرض السماوات والأرض أعدت للمتقين؟

ويحدثنا □ تعالى عن بعض الناس الذين يدخلون مجتمع المؤمنين، ولكنهم من الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم، فيقول سبحانه: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ° أَوْلَئِيسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ ° بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ) (العنكبوت/10)، وهذا النوع من الناس بمجرد أن يُؤذى في جنب □ بسبب إيمانه، أو يُضغط عليه ويُحاصر، يجعل فتنة الناس كعذاب □، ويحاول أن يعطِّم البلاء الذي وقع فيه بسبب محاصرة الناس، كما لو أن عذاب □ وقع عليه، وكما أنه يهرب من عذاب □، فإنه يهرب من عذاب الناس، فيقدِّم التنازلات ويعصي □.. وذلك لكثير من الذين ينطلقون في خطِّ الإيمان، فإذا ما ابتلوا بسبب انتمائهم للإيمان، وحدثت بعض الخسارات في أوضاعهم، فإنهم يتركون الإيمان جانبا ليحافظوا على هذه الأوضاع. وهؤلاء ينحازون ويلجأون إلى المؤمنين من جديد في اللحظة التي يكتب فيها □ تعالى النصر للمؤمنين على كلِّ الذين حاصروهم وسببوا لهم المتاعب (وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ) أتى وقت الانتصارت، وعندها (لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ °) في وقت الشدة والمواجهة يتنكِّرون للمؤمنين، أمّا في وقت النصر فيعلنون انتماءهم إلى خطِّ الإيمان.. ولكن على من يحكمون؟ (أَوْلَئِيسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ ° بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ) □ تعالى يعرف المنافق تماما، ويعرف من يحمل ازدواجية في شخصيته ومواقفه، ومن يعيش في قلبه خالص الإيمان، ومن هو مُكذِّر الإيمان.. وإذا انطلت حيلُ هذا المنافق على الناس، واستترت عنهم خفاياه وأسراره، فإنها لن تنطلي على □ تعالى (وَلَئِيعَلَّامَنَ اللَّهُ ° الَّذِينَ آمَنُوا ° وَلَئِيعَلَّامَنَ ° الْمُؤْمِنَاتِ °) (العنكبوت/11)، فهو تعالى يميز ويعرف حقائق الأشخاص، ولذلك يعلمُ المنافق حتى ولو ظهر بأوضح صور الإيمان، ويعلم □ المؤمن حتى لو لم يظهر من أمر إيمانه شيءٌ للناس. ويقف الكافرون للمؤمنين بالمرصاد لينزلوا إيمانهم (وَقَالَ ° الَّذِينَ كَفَرُوا ° لِلَّذِينَ آمَنُوا ° اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ° وَلِنَحْمِلْ ° خَطَايَاكُمْ ° وَمَا هُمْ ° بِحَامِلِينَ ° مِنْ ° خَطَايَاهُمْ ° مِنْ شَيْءٍ °) (العنكبوت/12)، امشوا في طريقنا، ونحن نحمل على ظهورنا كلَّ خطاياكم وذنوبكم وسيئاتكم، أنتم خائفون من يوم القيامة، نحن يوم القيامة.. هذه كلماتٌ سيتحملون مسؤولياتها، هم أضعف من أن يحملوا خطاياهم، وأضعف من أن يهربوا من عذاب □ (إِنَّهُمْ ° لَكَاذِبُونَ) يحاولون إغراءكم وإيقاعكم في الخطيئة، فإذا وقعتم في الخطيئة ووقفتم أمام حساب المسؤولية هربوا من كلِّ ما تعهدوا به، فهم لا يقدرُونَ أن يضمنوا أنفسهم، فكيف يمكن أن يضمنوكم؟ ولأنهم يسرون في طريق الضلال (وَلَئِيعَلَّامَنَ ° أَوْثَقَالَهُمْ ° وَأَوْثَقَالَا ° مَعَهُ ° أَوْثَقَالَهُمْ °) (العنكبوت/13)، فعلى أيِّ أساس تحمَّلتُم المسؤولية، ومن أنتم حتى تضمنوا على □؟ ففضية العقاب والثواب بيد □ تعالى وحده. وما هي قيمتكم وموقعكم عنده سبحانه، وكيف لكم أن تكفلوا الناس أمام □؟ وهذه المسألة يجب أن نعيها جيِّداً في حياتنا، وذلك عندما نريد أن ننطلق في أيِّ موقع، فيأتينا إنسانٌ لا يملك أيِّ أساسٍ للثقة، وأيِّ موقعٍ للطمئنان ليدعونا للسير معه مدعياً تحمُّله لكافة المسؤوليات، علينا أن نرفض ذلك، لأننا مسؤولون عن أنفسنا أمام □ يوم القيامة فيما أخذنا به.. إننا لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا يوم القيامة إلا إذا كنا نملك الحجة أمام □، ولذلك، لنوفر على أنفسنا ذلَّ يوم القيامة عندما لا نستطيع جواباً عند السؤال.